المحاضرة (3): رواد علم الاجتماع (1) ابن خلدون

IV -عبد الرحمن ابن خلدون:

-مقدمة:

يعتبر ابن خلدون من المفكرين الذين سجلوا أسماءهم بين دفتي قادة الفكر العربي، وقد نال شهرة واسعة لا سيما في العصر الحديث، فلقب بالمفكر الاجتماعي والسياسي، وبالمؤرخ والفيلسوف وغيرها من الألقاب. ولقد استطاع هذا المفكر العربي المبدع أن يقدم إسهامات مهمة في مجال الفكر الإنساني. وباعتباره سياسيا ومؤرخا، فقد استفاد كثيرا من علوم عصره ومن ملاحظاته الميدانية التي جمعها خلال تنقلاته في أرجاء العالم الإسلامي، كما استفاد من قراءاته الواسعة لتاريخ العالم القديم.

ولعل ما اشتهر به من خلال بحثه المعمق والطويل لشؤون الاجتماع الإنساني ولتاريخ الأمم والأجيال مقدمته التي شرح فيها علمه الجديد، علم العمران البشري حيث يقول: " ...وكأنه علم مستنبط النشأة ، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة ما أدري ألغفلتهم عن ذلك؟ وليس الظن بهم...".(1). ويمثل هذا العلم، حسب البعض، قطيعة في التفكير فلم يستطع المفكرون من قبله ولا من بعده الإتيان بما جاء به هو. وحسب رأي البعض الآخر لا يعتبر ابن خلدون بطفرة كما يتبادر للذهن؛ " بل هو عصارة المنهج العربي الإسلامي (2). ومهما تباينت وجهات النظر واختلفت؛ إلاّ أنّ هناك اتفاق عام بأنّ هذا العلم قد ولد من "رحم" المجتمع العربي ومن واقعه المليء بالكثير من الأحداث والوقائع التي ميزته خلال حقبة زمنية محددة. ومن ثم فما انتهى إليه ابن خلدون من أفكار ونظريات حول المجتمع العربي يمثل استنطاقا حقيقيا امبريقيا له، بإمكانه التأصيل لما يأتي من بعده من الأبحاث وهو الذي لم يحدث. وتلك هي خطيئة أحطنا بها علم الاجتماع عندما نكون بصدد البحث في الواقع ؟ وهنا يتساءل البعض: "لما لا يجري العلماء حفريات تراثية اجتماعية ليكتشفوا ابن خلدون؟ ترى ماهي الأسباب؟ لماذا نشأ علم الاجتماع في أوروبا في حين أن أصوله عربية(3). إن المبررات التي تجعل البعض يطرح مثل هذه التساؤلات-حسب اعتقادنا- هي أنه على الرغم من الفائدة- التي لا يمكن إنكارها- التي قدمها ويمكن أن يقدمها علم الاجتماع الغربي من نظريات ومناهج ووحدات وآليات لتفسير واقع المجتمع العربي؛ إلاّ أنه ينبغي الالتفات أن هذا العلم قد تشكل في مجتمعات ذات خصوصية حضارية وساهمت في نشأته ظروف محددة، ومن ثم لا يمكننا أن نتصور أنه من السهل انفكاك العقول التي أنتجه عن الظروف والقيود الثقافية المحيطة بهم. وبالتبعية تكون النتائج والنظريات ذات ارتباط وثيق بالواقع الذي كان مصدر الهام للعقول التي اكتشفتها. إنه من السهل أن يعود العلماء إلى ابن خلدون، للبحث في ثنايا مقدمته، والاستلهام من أفكاره ونظرياته، إذا ما أريد تكوين رؤية واضحة عن أبنية المجتمع العربي، وإذا ما أريد إيجاد تفسيرات لظواهره، وإذا ما أريد تطوير علما يكون أكثرا صلة وارتباطا بهويته الحضارية. وعليه جاء هذا البحث ليقدم عرضا للإسهامات العلمية للعلامة ابن خلدون على نحو يكشف عن فضل هذا الرجل في تأسيس علم العمران البشري.

1- نبذة مختصرة عن حياة ابن خلدون: تعود أسرة ابن خلدون حسب رواية ابن حزم إلى أصل حضرمي، ثم نزح أفرادها في العصور السابقة على الإسلام إلى الحجاز، وقد اشتهر منهم وائل بن حجر الذي صحب الرسول صلى الله وعليه وسلم

وبعده فيما بعد ومعاوية بن أبي سفيان إلى أهل اليمن ليعلمهم القرآن، وأثناء الفتوحات الإسلامية دخل منهم إلى الأندلس خالد بن عثمان وهو من بني خلدون.

نشأ بنو خلدون بمدينة قرمونة بالأندلس، حيث استقر فيها خالد بن عثمان، ثم نزحوا فيما بعد إلى اشبيليا التي كانت موطنا لهم. ومنهم محمد الذي آثر العلم والدرس وعزف عن شؤون السياسة إلى أن توفي سنة 749هـ الموافق لـ 1339م. تاركا ورائه خمسة أبناء منهم عبد الرحمن بن خلدون صاحب المقدمة(4) .

ولد ابن خلدون وهو أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن وكنيته أبو زيد، ولقبه ولي الدين، وشهرته ابن خلدون بتونس في رمضان عام 732هـ- 27 مايو 1332م(4). وقرأ القرآن الكريم وهو يافع، ودرس العربية على يد أبيه، واهتم بدراسة الحديث والفقه والعلوم العقلية(5) والنحو وكتب الأدب ودواوين الشعر(6) .

وقد جال ابن خلدون أقطار عديدة من الدول العربية والإسلامية في وقته: المغرب، تونس، الجزائر، والأندلس. وتعرض إلى الكثير من التقلبات والمضايقات نتيجة للمكائد التي لم تفارقه طيلة حياته إلى أن استقر أخيرا في مصر. وتولى العديد من الوظائف (التدريس والقضاء...). وقد وافته المنية في السادس والعشرين من شهر مارس من عام 1406م. تاركا ورائه الكثير من الآثار(7). تلك الآثار تحدث عنها لسان الدين بن الخطيب الذي اهتم بترجمة حياة ابن خلدون؛ نظرا للعلاقة الحميمة والقوية التي كانت تربطهم، وإن كان ابن خلدون لم يتحدث عن ذلك. وربما كانت تبدو من وجهة نظره تافهة. ويعتبر كتاب " العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" الكتاب والوحيد الذي وصل إلينا، والذي كان مرتب على مقدمة وثلاثة كتب حسب تعبير صاحب المقدمة نفسه.

- المقدمة: في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلمام بمغالط المؤرخين.
- الكتاب الأول: في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان، والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما إلى ذلك من الملك والأسباب.
- الكتاب الثاني: في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بداية الخليقة إلى هذا العهد، وفيه الإلمام ببعض من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم مثل: النبط والسريانيين والفرس وبني إسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والفرنجة.
- الكتاب الثالث: في أخبار البربر ومن إليهم من زناتة، وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول. أما الكتاب المعروف الآن باسم المقدمة، فهو في حقيقة الأمر المقدمة والكتاب الأول من كتاب العبر(8).

2-عصر ابن خلدون:

عاش ابن خلدون في القرن الثامن للهجرة الرابع عشر للميلاد، وكان هذا العصر من العصور التي شهدت فيها مجتمعات العالم العديد من التحولات والتقلبات تعبر عن مرحلة انتقالية من حياة البشرية. فعلى مستوى العالم العربي مرت بلدانه بمرحلة وصل فيها التراجع والانحطاط ذروته في وقت كان فيه الغرب يسعى إلى بناء وتشييد حضارة قوية ويحقق نهضته(9).

لقد عرف العالم الإسلامي خلال هذا القرن كوارث عديد تؤكد في مجملها أن شمس الحضارة الإسلامية بدأت في الأفول سياسيا واجتماعيا وفكريا في المشرق والمغرب، ففي المشرق كانت مجتمعاته تتعرض لهجمات التتر من حين لآخر، وفي

المغرب يزداد حكم المسلمين في الأندلس ضيقا وتقلصا، وتضعف الأسر الحاكمة وتدخل في مؤامرات وحروب طويلة بين القبائل العربية لم تتحدد فيها معالمها ولا غاياتها، في الوقت الذي لم تعرف فيه نهاية لها، حتى الطاعون الجارف أخذ نصيبه منها ليترك خرابا ودمارا. هذا فضلا عن سيطرة الجمود الفكري وانتشار التفكير الخرافي. كل هذه الظروف خلقت أوضاعا مرتبكة ومضطربة. ولعل حظ البلاد المغربية من كل ذلك كان أشد وأعنف. فمن الناحية السياسية تفككت الوحدات السياسية الكبرى التي حملت على عاتقها مشعل الحضارة الإسلامية، فالدولة العباسية في الشرق لم يعرف لها أثر، والدولة الموحدية في المغرب تلاشت(10). وتفكك المغرب العربي إلى ثلاثة أسر حاكمة أو دويلات مجزئة كانت تنشب بينها حروب طاحنة، بنو المرين في المغرب، والحفصيين في تونس، وبنو عبد الواد في الجزائر(11) .

ومن الناحية الاجتماعية كان المجتمع العربي مجتمعا قبليا في الغالب وحدته الاجتماعية القبيلة، لذلك كان، في معظم الأحيان، ما يتعرض إلى حروب تفتك فيها القبائل بعضها ببعض تحت تأثير العوامل الطبيعية والجغرافية والسياسية-الاجتماعية. وكان من نتيجة الأوضاع السياسية والاجتماعية المضطربة أن تثبط من الحركات الفكرية، وهذا ما حصل فعلا، حيث سيطر الجمود الفكري وغلق فيه باب الاجتهاد في العلوم الدينية والانصراف كليا عن العلوم العقلية(12) .

3-البحوث الاجتماعية قبل ابن خلدون:

سلك الباحثون قبل ابن خلدون في دراستهم للظواهر طرقا مختلفة في جوهرها وطبيعتها عن الطرق التي سلكها العلماء في دراسة العلوم الطبيعية والرياضية، وهي طرق لا تعنى ببحث الظواهر بقصد الكشف عن القوانين التي تخضع لها، أو حتى الاعتقاد بذلك، بقدر ما تتوقف عند مجرد الوصف أو إخضاع الحقائق لها أو الدعوة إليها.

أ- **الطريقة الأولى:** البحوث التاريخية الخالصة التي اقتصرت على مجرد وصف الظواهر لبيان ما كانت عليه، أو ما هي عليه دون استخلاص أية نتائج من وراء الوصف، خاصة فيما يتعلق بطبيعة الظواهر والقوانين التي تخضع لها. وقد سار على هذه الطريقة جميع المؤرخين من قبل ابن خلدون، فنراهم في ثنايا علاجهم لمسائل التاريخ العام يعرجون من حين لآخر ، وبحسب المناسبات، على نظم السياسة والاقتصاد والقضاء والأسرة والتربية واللغة وما إلى ذلك من ظواهر الاجتماع ، فيصفون ما كانت عليه في الشعب الذين يدرسون تاريخه أو في الشعوب التي يدرسون تاريخها . وسار على هذه الطريقة كذلك طائفة ممن درسوا تاريخ ظواهر الاجتماع في صورة مستقلة عن حوادث التاريخ العام ، فجعلوا موضوع دراساتهم مجموعة معينة من هذه الظواهر كظواهر السياسة أو القضاء أو الاقتصاد أو التربية أو الدين. فقد اقتصر هؤلاء كذلك على وصف هذه الظواهر وبيان ما كانت عليه أو ما هي عليه . وذلك كما فعل ابن حزم في دراسته للملل والنحل ، وكما فعل الفقهاء في دراستهم للشرائع، وكما فعل الباحثون في تاريخ التشريع أو تاريخ القضاء...

ب- **الطريقة الثانية:** التي سلكها الباحثون قبل ابن خلدون في دراساتهم هي الدعوة إلى المبادئ التي تقررها الظواهر الاجتماعية، وبيان محاسنها ومحاولة ترغيب الناس فيها، وحثهم على التمسك بها وتثبيتها في أنفسهم وتحذيرهم من تعدي حدودها، وسار على النهج علماء الدين والخطابة والأخلاق كابن مسكويه في كتابه "تهذيب الأخلاق"، والغزالي في كتابه: "إحياء علوم الدين".

ج- **الطريقة الثالثة:** في حين اتجه البعض في دراستهم للظواهر الاجتماعية إلى ما ينبغي أن تكون عليه الظواهر بحسب المبادئ المثالية التي يرتضيها المجتمع كما فعل أفلاطون في كتابه :"الجمهورية"، والفارابي في كتابه : " آراء أهل المدينة الفاضلة"(13).

ويبقى بعد ذلك كله وجه آخر لدراسة الظواهر الاجتماعية لم يعرض له أحد من قبل ابن خلدون، مع أنه أهم هذه الوجوه جميعا وأحقها بالبحث ، وذلك أن تدرس هذه الظواهر لا لمجرد وصفها ولا للدعوة إليها ولا لبيان ما ينبغي أن تكون عليه، ولكن لتحليلها تحليلا يؤدي إلى الكشف عن طبيعتها والأسس التي تقوم عليها والقوانين التي تخضع لها، أي أن تدرس كما يدرس العلماء ظواهر الفلك والطبيعة والكيمياء ووظائف الأعضاء والى ذلك من مسائل العلوم.

وهذا الوجه من الدراسة لا يتاح إلا لمن ثبت لديه أن الظواهر الاجتماعية لا تسير حسب الأهواء والمصادفات ، ولا حسب ما يريد لها الأفراد ، وإنما تسير في نشأتها وتطورها ومختلف أحوالها حسب قوانين ثابتة مطردة

وهذه الحقيقة لم يصل إليها تفكير أحد من قبل ابن خلدون، بل نقيضها كان هو المسيطر على أفكارهم جميعا، فقد كان المعتقد أن ظواهر الاجتماع خارجة عن نطاق القوانين وخاضعة لأهواء القادة وتوجيهات الزعماء والمشرعين ودعاة الإصلاح. لذلك لم يكن من الممكن حينئذ أن تدرس الظواهر الاجتماعية على الوجه الذي تدرس به الطبيعيات والرياضيات

ولكن ابن خلدون هدته مشاهداته وتأملاته العميقة لشؤون الاجتماع الإنساني إلى أن الظواهر الاجتماعية لا تشذ عن بقية ظواهر الكون، وأنها محكومة في مختلف مناحيها بقوانين طبيعية تشبه القوانين التي تحكم ما عداها من ظواهر الكون، كظواهر العدد والفلك والطبيعة والكيمياء والحيوان والنبات، ومن ثم رأى أنه من الواجب أن تدرس هذه الظواهر دراسة وضعية كمال تدرس ظواهر العلوم الأخرى للوقوف على طبيعتها وما يحكمها من قوانين

4- الأسباب التي دعت ابن خلدون إلى إنشاء علم العمران:

كانت هناك جملة من الأسباب التي دعت ابن خلدون إلى إنشاء علم العمران منها حرصه الشديد على تخليص البحوث التاريخية من الإخبار الكاذبة، فقد رأى ابن خلدون في كتب السابقين من المؤرخين الكثير من الأخبار غير الصحيحة، ولهذا أكد على ضرورة تخليص التاريخ من تلك الطائفة التي تشمل الأخبار الكاذبة التي لا تعطي صورة صادقة وواقعية لأحوال المجتمعات، ولهذا كان يهدف من وراء عمله إلى إنشاء أداة يستطيع بفضلها الباحثون في علم التاريخ التمييز بين ما يحتمل الصدق وما لا يمكن أن يكون صادقا فيما يتعلق بأخبار الظواهر الاجتماع الإنساني، فيتم استبعاد ما لا يحتمل الصدق، وفي المقابل يتم التركيز وبذل الجهود في بحث ما يحتمل الصدق، وبعبارة أدق، البحث فيما يمكن حدوثه في شؤون الاجتماع الإنساني(20). ولعلاج هذه الأخطاء لا بد من البحث والتقصي في الأسباب التي تدعو إلى الكذب، أو إلى الأسباب التي تدعو إلى تقبل الأخبار غير صحيحة. وبالتالي؛ متى تم الكشف عنها أمكن علاجها وتفاديها وتصحيحها. وقد حدد ابن خلدون ثلاثة طوائف من الأسباب التي تدعو إلى الكذب.

تتعلق الأولى بشخصية المؤلف وميوله وأهواؤه ومدى انقياده إلى هذه الميول والأهواء (21). ومن ذلك "التشيعات للآراء والمذاهب، فإنّ النفس البشرية إذا كانت على حالة الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر، حتى تتبين

صدقه من كذبه، وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة، قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله..." (22). ومنها: " تقرب الناس في الأكثر لأصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك..." (23). ومنها: "الذهول عن المقاصد، فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب، ومنها توهم الصدق وهو كثير، وإنما يجيء في الأكثر من جهة الثقة بالناقلين"(24).

أما الطائفة الثانية فتتمثل في الجهل بالقوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية، سواء كانت هذه الظواهر فلكية أو كيميائية أو تتعلق بالطبيعة والحيوان والنبات، فهناك الكثير من المؤرخين ممن يأتوا بأخبار ذات صلة بالظواهر السالفة الذكر، ويضعون لها قوانين على الرغم من استحالة حدوثها، ولعل ما نقله المسعودي عن الاسكندر لدليل واضح على ذلك، عندما قال بأن الاسكندر عندما صدته دواب البحر من الشياطين البحرية عن بناء الإسكندرية، كيف اتخذ من تابوت من خشب وفي باطنه صندوق من زجاج، وغاص فيه إلى قعر البحر. وهي في الحقيقة قصة خرافية لاستحالة حدوث مثل هذه الظاهرة؛ لأن المنغمس في الماء يختنق لفقدان الأكسجين. يقول ابن خلدون: " ومن الأسباب المقتضية له أيضا، وهي سابقة على جميع ما تقدم، الجهل بطبائع الأحوال في العمران، فإنّ كل حادث من الحوادث ذاتا كان أو فعلا لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته، وفيما يعرض له من أحواله... وكثيرا ما يعرض للسامعين قبول الأخبار المستحيلة وينقلونها وتؤثر عنهم...كما نقله المسعودي عن الاسكندر"من أحاديث خرافية(25) .

وأما الطائفة الثالثة من الأسباب التي تدعو إلى الوقوع في الخطأ، فتتمثل في الجهل بالقوانين التي تخضع لها ظواهر الاجتماع الإنساني، فحسب رأي ابن خلدون، أن الظواهر الاجتماعية لا تسير حسب الأهواء والصدفة؛ وإنما تحكمها قوانين، يقول ابن خلدون:"... فإذا كان السامع عارفا بطبائع الحوادث والاحوال في الوجود ومقتضياتها، أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب(26). وأما إذا اعتمد في الأخبار "على مجرد النقل ولم تحكم... طبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ...فربما لم يؤمن من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصواب"(27) .

لذا كانت تكمن الدوافع الفعلية في المعرفة التاريخية لبحث ابن خلدون في بيئة عصره وسيرة حياته، التي اقترنت فيها التجارب والخبرات العملية بالثقافة العربية الإسلامية وبالتأملات الفلسفية، فأملت عليه طريقة في التفكير لا تسلم إلاّ بالتفسيرات التاريخية المستندة إلى المعرفة العقلية والحسية. فما شاهده ابن خلدون من تبدل في أحوال الأمم والممالك، وما استقرأه من تاريخ الأمم والشعوب، وما عاصره من حوادث الزمان والمكان؛ خلق لديه وعيا نقديا، جعله يعيد النظر لا في طرق المؤرخين وينتقدها فحسب؛ وإنّما في مغزى المعرفة التاريخية وموضوعها أيضا، ومن ثم كان الدافع الأصلي للمعرفة الخلدونية؛ إنّما يكمن في محاولته لفهم مجتمع عصره وتكويناته وقوانيه(28) .